الزيارات المنزلية في الشرق الأوسط:

آراء حول تطبيق مشروع Reach Up and Learn

**Katelin Swing Wilton, Aimée Vachon, Katie Maeve Murphy,**

**Ayat Al Aqra, Abdullah Ensour, Iman Ibrahim, Anas Tahhan,**

**Kayla Hoyer, and Christine Powell**

**نبذة**

نورد في هذه المذكرة الميدانية الأسانيد المؤيدة لتكييف Reach Up and Learn، وهو تدخل يعتمد على الأدلة للزيارات المنزلية، بما يلائم احتياجات اللاجئين والنازحين الداخليين والسكان المستضعفين الآخرين في الأماكن المتضررة من النزاعات في الأردن ولبنان وشمال شرق سوريا. نتناول بالشرح تنفيذ هذا التدخل في البلدان الثلاثة، ونستعرض ملاحظاتنا، بما في ذلك النجاحات المُحققة والتحديات التي واجهتنا في أول عامين (2016 و2017) لهذا المشروع الذي يمتد لعدد من السنوات. كذلك نقدم رؤى حول تطور هذا المشروع في كل بلد على حدة، ونقارن مناهج التكييف ونضاهي بينها في كل بلد، ونبرز الابتكارات مستندين في ذلك تحديدًا إلى التعقيبات من داخل البلد. كذلك نتطرق إلى مناهج قياس التدخل وحساب تكلفته، ونشير إلى الطرق التي يساهم المشروع من خلالها في المجموعة المحدودة من الأدلة في هذه المنطقة. نقدم توصيات محددة بمزيدٍ من الأبحاث لإيجاد أدلة حول تنمية الطفولة المبكرة في إعداد البرامج الإنسانية، ونختم بنظرة عامة على المرحلة التالية من مشروع Reach Up and Learn، الذي يمثل جزءًا من مبادرة أوسع نطاقًا لتحسين المخرجات التنموية للأطفال في تلك المنطقة المضارة بالأزمات والصراع.

**تمهيد**

في عام 2018، وُلِدَ ما يزيد عن 29 مليون طفل في حالات صراع (يونيسف 2019). نادرًا ما يحصل مقدمو الرعاية في حالات الصراع، التي تتسم بمستويات مرتفعة من التوتر وانعدام الأمن، على دعمٍ في تقديم رعاية التنشئة لأطفالهم الصغار. برنامج Reach Up and Learn (الذي يُشار إليه فيما بعد في هذه الوثيقة ببرنامج Reach Up) المُقدَّم من لجنة الإنقاذ الدولية (IRC)، هو برنامج شامل للزيارة المنزلية للأطفال من سن 6 أشهر إلى 3 سنوات والذين يرعونهم. هذا البرنامج مُصمَّم لدعم إمكانات مقدمي الرعاية من أجل إتاحة فرص أفضل للتعلم القائم على اللعب للأطفال، ويأخذ هذا البرنامج مدخلاً جديدًا في دعم تنمية الطفولة المبكرة عن طريق دمج الزيارات المنزلية لتنمية الطفولة المبكرة بالخدمات التي تشتمل عليها حاليًا الاستجابة الإنسانية.

نقدم في هذه المذكرة، وبعد استعراض خلفية موجزة حول الأزمة السورية والحاجة إلى إعداد برامج تنمية الطفولة المبكرة في المنطقة، نظرة عامة على المنهج البرامجي لـ Reach Up، وتوصيفًا لعملية التكييف والتنفيذ الفريدة والمتكررة التي حدثت في كل بلد من هذه البلدان الثلاثة. كما نقدم تفاصيل مهمة حول تطور البرنامج في العامين الأولين من التنفيذ. نناقش في الأجزاء التالية الدروس المُستفادَة والنتائج البازغة في الوقت الحاضر من البرنامج في كل بلدٍ (انظر شكل رقم 1)، ونقدم توصيات تتعلق بالعمل في المستقبل.

شكل رقم 1: خريطة سوريا ولبنان والأردن تشمل مواقع تنفيذ برنامج لجنة الإنقاذ الدولية Reach Up

المصدر: سونغ هي تشاو/ لجنة الإنقاذ الدولية

**الأزمة السورية واحتياجات مقدمي الرعاية للأطفال الصغار**

أدت الأزمة السورية منذ عام 2011 إلى حركة نزوح هائلة قاربت الـ11 مليون نسمة، من بينهم أكثر من 6 ملايين شخص داخل البلد، وأكثر من 5 ملايين لاجئ سوري. عادة ما يعيش اللاجئين والنازحين الآخرين في مخيمات أو مستوطنات عشوائية أو أماكن قريبة من الأماكن الحضرية (المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين 2019).

تأثير أزمة اللاجئين السوريين واضح لأسبابٍ كثيرة، لكنَّ تأثيرها على الأطفال بصفة خاصة خطير؛ فنحو نصف (45%) اللاجئين السوريين من الأطفال من سن 17 عام فما دون، بينما شكل الأطفال دون الخامسة 15.7 بالمائة من اللاجئين السوريين في سبتمبر 2019 (المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين 2019). تم توثيق الآثار السلبية للحرب و/أو العنف و/أو النزوح على الأطفال الصغار، لاسيما الأطفال دون سن الثالثة، بصورة جيدة. تشير الإحصائيات إلى أن الأطفال الصغار الذين ولدوا في بيئات يمرون فيها بتجارب سلبية متنوعة مثل التعرض لعنفٍ أو أمراض مزمنة أو غياب الفرص، أكثر احتمالية لمكابدة نتائج صحية سيئة ومستوى من الرفاه يتناسب مع مستوى الصدمة الذي تعرضوا له (Felitti et al. 2019). يمكن للأطفال في ظل غياب تفاعلات متجاوبة متكررة مع مقدمي الرعاية ووجود عوامل إجهاد كالفقر والعنف، أن تتولد لديهم استجابة إجهاد سام، وهي عبارة عن اختلال في عمليات حيوية وعصبية مهمة أثناء المراحل التأسيسية من التنمية. يمكن أن يكون للإجهاد السام في سنٍ مبكرة تبعات خطيرة على المدى البعيد على تنمية الأطفال تزيد من مخاطر مكابدة نتائج سيئة على الصحة البدنية والعقلية وقصور إدراكي، وفيما بعد انخفاض في المكاسب (Shonkoff et al. 2012).

كذلك ثمة شواهد على وجود تأثير ملحوظ للحرب و/أو العنف و/أو النزوح على رفاه مقدمي الرعاية، لاسيما فيما يتعلق بقدرتهم على تقديم رعاية متجاوبة لأطفالهم، والمشاركة في أنشطة تعلُّم. هناك عدد من العوامل والأحوال التي تؤثر سلبًا على مقدمي الرعاية الذين يعيشون في أجواء الصراع، مثل فقدان روابط المجتمع، والصعوبات المالية، ومشكلات في الصحة البدنية والعقلية، وتحديات بيئية. لحُسن الحظ، تُظهِر الشواهد أنه بمقدور برامج التنشئة أن يكون لها تأثير إيجابي على ممارسات مقدمي الرعاية ودعم قدرة كل من مقدمي الرعاية والأطفال الذين يعيشون في أجواء الصراع على التأقلم (Murphy, Yoshikawa, and Wuermli 2018).

أقر إطار رعاية التنشئة تحقيقًا للتنمية في مرحلة الطفولة المبكرة (منظمة الصحة العالمية 2018) بأن تقديم خدمات تعليمية مبكرة متكاملة يُعَد احتياجًا أساسيًا للأطفال دون سن الثالثة الذين يتأثرون بصراعٍ. لتدخلات التنشئة مثل Families Make the Difference، وهي عبارة عن جلسة جماعية لآباء الأطفال من الولادة وحتى سن الثامنة، تأثير مؤكد (Puffer et al. 2015)، لكن القليل من البرامج هو الذي يتعامل مع الاحتياجات الخاصة للأطفال من الولادة وحتى سن الثالثة وأسرهم، لاسيما أولئك الموجودين في أجواء صراع. من بين 27 برنامجًا فحسب للاستجابة الإنسانية أنشأته واحدة من وكالات الأمم المتحدة وحكومة بلد للاستجابة لأزمات اندلعت فجأة تتطلب مساعدة إنسانية دولية تشمل تنمية الطفولة المبكرة، لم يتم جمع إلا القليل من الأدلة حول التصميم الفعال للبرنامج، ولم تُجرى إلا أربعة تقييمات للأثر فحسب لتدخلات التنشئة في السياقات الإنسانية (Murphy et al. 2018؛ يونيسكو 2018، 138-39). نتيجة لهذا، تُترَك الأسر النازحة دون دعم هُم في أمس الحاجة إليه أثناء أكثر الفترات أهمية في تنمية أطفالهم.

**Reach Up and Learn**

Reach Up عبارة عن برنامج للزيارات المنزلية في مرحلة الطفولة المبكرة مُصمَّم ليساعد مقدمي الرعاية على دعم التنمية الصحية لأطفالهم. يعتمد البرنامج على واحد من تدخلات تنمية الطفولة المبكرة يُعرَف باسم البرنامج الجامايكي للزيارة المنزلية الذي وُضِعَ في جامعة ويست إنديز. وثَّقَت الدراسات التي أُجريت على هذا التدخل في جامايكا الأثر الإيجابي للزيارة المنزلية على الدعم النفسي الاجتماعي والتحفيز المعرفي لدى الأطفال من سن 9 أشهر إلى 24 شهرًا. مع أن الدراسات أوصت بزيارات منزلية أسبوعية، إلا أنهم لاحظوا أن الزيارات أسبوع بعد أسبوع ربما يكون لها أيضًا تأثير إيجابي (Grantham-McGregor et al. 1991; Powell and Grantham-McGregor 1989). في حين جاءت أبحاث لاحقة شملت دراسات متابعة طولية لتوثق التأثير الإيجابي الملحوظ للبرنامج على القدرة المعرفية والصحة العقلية وعوائد سوق العمل (Gertler et al. 2014; Walker et al. 2011). خضع برنامج Reach UP منذ نشأته للتكييف والتطبيق في أكثر من 13 بلدًا.

توفر مجموعة أدوات Reach UP دليلاً تدريبيًا لأفراد المجتمع الذين يرغبون في أن يصبحوا زائرين منزليين، وتشمل مجموعة الأدوات منهاجًا يعتمد على اللعب يهدف إلى إعداد زائرين منزليين جُدُد يتولون توجيه الوالدين في القيام بأنشطة تعليمية مبكرة مع أطفالهم. يتألف البرنامج من زيارات منزلية أسبوعية أو نصف شهرية مدة كل منها ساعة واحدة، ويتم التركيز فيها على اللعب وبناء ثقة مقدم الرعاية في نفسه. يتم التعريف بالأنشطة التعليمية المبكرة المدعمة باللعب وتقديم الدعم على مدار سلسلة من الزيارات.

يقوم الزائر المنزلي بتوضيح هذه الأنشطة في منزل مقدم الرعاية، ثم يقوم في الوقت الذي يمارس فيه مقدم الرعاية هذه الأنشطة مع طفله بتقديم الدعم والثناء. من شأن هذا النهج الذي يقوم على "التوضيح والممارسة والثناء" إيجاد بيئة يشعر فيها مقدم الرعاية والطفل كلاهما بالدعم في تصرفاتهما في الوقت الذي يتعرفان فيه على فرص جديدة للتعلم. من أهم خصائص هذا المنهج القائم على الزيارة المنزلية تمكين مقدم الرعاية، وهو الأمر الذي يؤسس لأن يكون لهما أثر بعيد الأجل على الأسرة ككل كما تعكسه نظرية التغيير للبرنامج (انظر شكل رقم 2).

شكل رقم 2: نظرية التغيير لبرنامج Reach Up

|  |  |
| --- | --- |
| أنشطة | أنشطة |
| * تكييف مجموعة أدوات Reach Up وتنقيحها لتلائم 3 منصات تقديم: حماية الطفل والتعليم والصحة.
* توظيف وتدريب زائرون منزليون ومشرفون.
* يتولى الزائرون المنزليون توجيه الوالدين في أنشطة التحفيز/اللعب المبكرة.
 | * الاستعانة بوكالات شريكة في تصميم/تحديد نطاق ورش العمل والتحقق من صلاحيتها.
* إجراء دراسة لقياس تكلفة التدخل والتجهيز لتقييمه.
* تنقيح الخطة أو تغيير نطاقها في ضوء ما تُسفِر عنه نتائج التقييم والمدخلات التي توفرها الوكالة/الحكومة الشريكة.
 |
| إذا... | و... |
| مشاركة مقدمي الرعاية في اللعب وأنشطة التعلم المبكر ودعمهم فيها | تقوم الوكالات والحكومات الشريكة بدمج تنمية الطفولة المبكرة ضمن قوة العمل الحالية |
| حينئذٍ... |
| يكتسب الأطفال الصغار (من سن 0 إلى 3) المهارات المعرفية والاجتماعية العاطفية اللازمة لنجاحهم الأكاديمي المستقبلي ورفاههم بحسب قدراتهم التنموية. |

المصدر: Katelin Wilton, Sunghee Cho/IRC

رغم عمليات التكييف الكثيرة التي جرت على برنامج Reach UP قبل تكراره هذه المرة على مجتمعات النازحين في الشرق الأوسط، إلا أنه لم يُنفَّذ كجزءٍ من استجابة إنسانية من قبل. مع أن التكرار الحالي للبرنامج يستفيد من الخبرة السابقة، لكن جرى تكييفه ليتعامل تحديدًا مع الاحتياجات الفريدة للأطفال ومقدمي الرعاية المستضعفين في الشرق الأوسط. كان برنامج Reach Up السبيل الأمثل لدعم الآباء في توفير رعاية التنشئة لأطفالهم بالنظر إلى خبرة لجنة الإنقاذ الدولية (IRC) الواسعة في دعم الآباء والأطفال في المناطق المتضررة من الصراعات ومدى فداحة أزمة اللاجئين السوريين وندرة برامج تنمية الطفولة المبكرة في السياقات الطارئة.

**المرحلة الأولى من Reach Up**

البحث الاستهلالي والنموذج التجريبي في الأردن

بدأت لجنة الإنقاذ الدولية (IRC) في عام 2016 بإجراء بحث أولي في كلٍّ من الأردن ولبنان لتحديد كيفية التعامل مع احتياجات مقدمي الرعاية للأطفال في خِضَم أزمة اللاجئين السوريين، وركزت في عملها على الوقوف على مدى الاهتمام بدعم التنشئة وتوافره لمقدمي الرعاية السوريين في مناطق النزوح، ومدى الحاجة إلى تكييف نماذج تعتمد على الأدلة للبرنامج بهدف دعم نطاق تقبل البرنامج ونطاق وصوله، وتحديد تكاليفه المحتملة. لم تسفر النتائج فقط عن وجود فرص لدعم مقدمي الرعاية، لكنها أسفرت أيضًا عن وجود طلب على تلك البرامج بين الأسر السورية. كان من بين النتائج الأنسب بصفة خاصة لبرنامج Reach Up هي تلك التي أظهرت أن الشبكات الاجتماعية القوية التي تعتمد على الأسرة والأعراف الثقافية للاستضافة تعني ترحيب المجتمع بالزيارات المنزلية.

جرى كجزءٍ من هذا البحث اختبار تجريبي لبرنامج Reach Up امتد لشهرين في سبتمبر 2016 في مخيم الأزرق للاجئين في شمال الأردن حيث كان المتطوعون التوعويون يجرون بالفعل زيارات ميدانية للتوعية بشأن خدمات حماية الطفل. تم إجراء تدريب قصير قبل الشروع في الاختبار التجريبي زار أثنائه ثمانية متطوعين 16 أسرة للوقوف على جدوى هذا النموذج ومدى قبوله وأوجه التكييف المطلوبة لتنفيذه، وفي نهاية الاختبار التجريبي، تم توزيع استبيان تعقيبي على كل الوالدين ذَكروا فيه إن أطفالهم: "أحبوا كل ما يتعلق بالزيارات المنزلية". كما ذكر الآباء إنهم بعد مشاركتهم في البرنامج كانوا أكثر ميلاً لامتداح أطفالهم (94%)، والحديث معهم (81%)، وإشراك أطفالهم في الأنشطة المنزلية (68%)، واللعب مع أطفالهم (62%). بعد النجاح الذي حققه الاختبار التجريبي، تم التوسع في تطبيق Reach Up في مخيم الأزرق من خلال قطاع حماية الطفل. أُجري بعد ذلك اختبار تجريبي مدته ثلاثة أشهر في محافظتي عكار والبقاع في لبنان من خلال قطاع التعليم، الذي استفاد من العلاقات القائمة بين الأسر وطاقم العمل التي ترسَّخَت من خلال البرامج المجتمعية لمرحلة ما قبل سن الدراسة.

تدريب المدربين وتكييف البرنامج

أجرى أعضاء فريق Reach Up and Learn في جامايكا تدريبًا للمدربين لأعضاء فريق Reach Up في فبراير 2017 لإعدادهم لإطلاق البرنامج والشروع في عملية تكييف البرنامج ليلائم الأسر السورية. تركز عملية التكييف على التعرف على منصات تقديم البرنامج داخل لجنة الإنقاذ الدولية (IRC)، والتخطيط لوضع سياق للمواد المُستخدَمَة مثل الكتب القصصية، وتقييم مدى الملاءمة الثقافية لأنشطة المنهاج.

من الخطوات الأولى ترجمة المنهاج إلى اللغة العربية، وهي اللغة السائدة في تلك المنطقة، وقد تمت ترجمته بطريقة احترافية إلى العربية الفصحى، ومراجعته بواسطة ورشة الموارد العربية لاعتبارات تتعلق بالدقة الفنية واللهجة المُستخدَمَة في هذه المنطقة، وأخيرًا، تم تكييفه من حيث النبرة والملاءمة الثقافية بواسطة فريق لجنة الإنقاذ الدولية (IRC) في المنطقة.

قامت فِرَق العمل في لجنة الإنقاذ الدولية (IRC) باختبار المحتوى بعد تكييفه وتأكيد ملاءمته ثقافيًا لكلا اللاجئين السوريين والمجتمعات المضيفة، ولأوضاعهم المعيشية. مر الدليل التدريبي بعددٍ من التغييرات اشتملت على إضافة توجيهات حول العمل مع مجتمعات النازحين في المنطقة، وقد اشتمل ذلك على التعامل مع أسر كبيرة العدد لديها أطفال كثيرون في المنزل، وهو أمر شائع الحدوث في المجتمع السوري. كذلك أُضيف إلى التدريب محتوى جديد بما يعكس الاحتياجات الخاصة للمجتمع للتعامل مع رفاه مقدم الرعاية (إدارة الإجهاد واستراتيجيات المواجهة وتراسل الرعاية الذاتية)، وحماية الأطفال، والتعرف على علامات التعرض للإساءة (لاسيما العنف ضد النساء أو الأطفال)، وإحالة الأسر إلى خدمات الحماية، واستخدام أسلوب الانضباط الإيجابي.

عملت لجنة الإنقاذ الدولية مع فريق Reach Up الجامايكي وفنانين أردنيين على تكييف الصور والكتب القصصية المستخدمة في المنهاج لتناسب هذا السياق بذاته، واشتمل ذلك على تغيير الرسوم التوضيحية لتظهر فيها عناصر وبيئات ملائمة محليًا. واحدة من أهم مميزات Reach Up هي صناعة الألعاب، حيث يستخدم الزائرون المنزليون دليلاً تفصيليًا في صناعة ألعابهم الخاصة للذين يزورونهم. خضعت عملية صناعة الألعاب لعملية تكييف شاملة، انطوت على التعرف على المواد المحلية لكل نشاط وارد في المنهاج. اشتملت عمليات التكييف المحلية على صناعة خشخيشات من علب هلام الشعر، وشاحنات من الورق المقوى، وعرائس على شكل أغنام من القطن والورق المقوى. كما أُضيفَت إلى جدول أعمال كل زيارة مجموعة من الأغاني المحلية المعروفة والمحبوبة.

التوسع داخل شمال شرق سوريا

في منتصف عام 2017، تواصل مكتب لجنة الإنقاذ الدولية في شمال شرق سوريا مع الوحدة الفنية للتعليم بشأن توسيع نطاق البرنامج ليشمل قطاع حماية الطفل. وفي أواخر عام 2017، وبعدما تلقى الطاقم السوري لحماية الطفل التدريب وأُجرِيَت تعديلات إضافية على المنهاج والمواد، أُطلِقَ برنامج للزيارة الأسبوعية في عددٍ من مخيمات النازحين الداخليين وفي المناطق الحضرية التي يعيش فيها سوريون نازحون. في أواخر عام 2018، تم توسيع نطاق برنامج Reach Up داخل الأردن، حيث استفاد البرنامج من خدمات الزيارة المنزلية لصحة المجتمع التي تقدمها لجنة الإنقاذ الدولية. عمل البرنامج في تعاون وثيق مع القطاع الصحي، وتم توسيع نطاقه ليشمل محافظة المفرق بوصفه نموذجًا متكاملاً للزيارة المنزلية في مجال تنمية الطفولة المبكرة وصحة المجتمع. تواصلت الزيارات المنزلية لمدة عام واحد حتى يونيو 2019، حيث انتهت المرحلة الأولى من تنفيذ Reach Up في الشرق الأوسط.

**ملخص بالدروس المُستفادَة**

تمخض تنفيذ برنامج Reach Up في عدد من البلدان المختلفة عن الكثير من الدروس نظرًا للفارق الشاسع بين مواقع تنفيذه المختلفة، وعدد الأفراد الذين تم الوصول إليهم، والتباين بين خلفيات المشاركين، ولاسيما في حالة شمال شرق سوريا.

**التنفيذ**

اتضح جليًا أثناء تنفيذ Reach Up في عددٍ من البلدان أن المنهاج وتقديمه يتطلبان المزيد من التكييف؛ فعلى سبيل المثال، جاءت التغييرات التي أُدخِلَت على الكتب القصصية لتعكس ظروف إقامة تحاكي الخيام والمعيشة في شقق، والنباتات الصحراوية، والحيوانات والمنتجات المحلية. نظرًا لأن البرنامج يعمل في مناطق قريبة من الحضر، ومستوطنات خيام، وأجواء مخيمات، كان إيجاد المحتوى البصري المناسب على نطاق واسع يمثل تحديًا بصفة خاصة، لكنَّ أعمال الترجمة تمت على أفضل وجه، وذَكَر برنامج شمال شرق سوريا أن توافر مواد مُتَرجَمَة سهل بدء البرنامج.

ظلت التحديات تدور حول صناعة ألعاب للبرنامج واستخدامها. عرفنا أن صناعة الألعاب كانت بالنسبة للزائرين المنزليين مسألة مستنفدة للوقت أكثر مما توقعنا في الأصل؛ لذا كان علينا أن نمنحهم مزيدًا من الوقت كي يتمكنوا من إعداد اللعب لزياراتهم. كذلك وجدنا أن جمع بعض الخامات لم يكن بالسهولة التي توقعناها، لأن إعادة التدوير لم يكن شائعًا في الأردن؛ فعلى سبيل المثال، أدى حدوث تغييرات في التوزيع في مخيم الأزرق إلى نقص في زجاجات الشامبو التي استخدموها في صناعة السيارات اللعبة، لكننا حللنا هذه المشكلة غير المتوقعة عن طريق تشجيع طاقم لجنة الإنقاذ الدولية على المشاركة في إعادة التدوير المكتبي.

واحد من أمتع الدروس ذلك الذي أخذناه من شمال شرق سوريا حيث دفعتنا التحديات الفريدة المتمثلة في سكان لا يشعرون بالأمن وينخفض بينهم مستوى الإلمام بالقراءة والكتابة إلى إنشاء دليل مدعم بالرسومات التوضيحية للوالدين يشرح منهاج الزيارة المنزلية من دون استخدام كلمات تقريبًا. كنا نرى في الأصل أن هذا الشكل المرئي ما هو إلا حل مؤقت يحل محل الزيارات المادية إذا طرأت ظروف غير آمنة، لكنه ما إن لبث حتى أثبت نفسه مكملاً جيدًا لأي زيارة منزلية لبرنامج Reach Up، شريطة أن يُمكن طباعتها بتكلفة منخفضة. يجري فريق شمال شرق سوريا اختبارات تجريبية على هذا المنتَج بالتعاون مع لجان تنمية الطفولة المبكرة بقيادة المجتمع.

ثمة تكييف آخر يتمثل في استخدام برنامج مُثبت على حاسوب لوحي في تقديم Reach Up في قطاع الصحة الأردني، حيث يقوم الحاسوب اللوحي المُصمَّم في الأصل للمتطوعين الصحيين المجتمعيين بتنبيه الزائرين المنزليين تلقائيًا للنشاط الملائم للطفل في ضوء السن المُسجَّل له. قام النظام بجمع عدد من نقاط البيانات المهمة المسموح بها من أجل قدر أكبر من السهولة في جمع بيانات عن أداء البرنامج. لكن قبل أن نتوسع في استعمال الحواسيب اللوحية، لا بد لنا من التغلب على بعض التحديات التصميمية الدائمة.

مع أن عددًا من التحديات المتعلقة بالتنفيذ كان مقتصرًا على سياقات بعينها، إلا أن ثمة تحديات أخرى ظهرت في كل البرامج في الأردن وسوريا ولبنان، كتلك المتعلقة بمشكلات التدريب والاحتفاظ بطاقم العمل والإشراف على الزيارات المنزلية. استمر التدريب على Reach Up عشرة أيام، أصبح بوسع المتدربين بعدها القيام بزيارات منزلية مع وجود إشراف دوري. لكنَّ الالتزام هذه المرة كان صعبًا على المدربين الذين يتحملون مسؤوليات إدارية لبرامج كثيرة متنافسة؛ ففي سياقات متعددة -على سبيل المثال- كان الزائرون المنزليون يتقاضون أجرًا من الحكومة المضيفة بسبب قيود العمل المفروضة على اللاجئين بدلاً من أن يصبحوا ضمن أفراد طاقم العمل، وهو ما ساهم بدوره في ارتفاع معدل دوران العاملين، وخلق الحاجة إلى تدريب مستمر. لمكافحة معدل دوران العمالة المرتفع، عكفت فِرَق العمل في Reach Up على تطوير قوائم احتياطية من الزائرين المنزليين المُدرَّبين الجاهزين للاستعانة بهم حسب الحاجة. أما عن الأثر الأكبر لدوران العمالة فتمثل في الافتقار إلى الإخلاص لمنهجية Reach Up وصعوبة توفير إشراف جيد. للمساعدة في التخفيف من هذا التحدي، أنشأت لجنة الإنقاذ الدولية دوائر تعليمية للزائرين المنزليين، وهي عبارة عن نموذج للتطوير المهني بين النظراء يُستخدَم في الأصل مع المعلمين. استضاف المشرفين دوائر تعليمية شهرية لمساعدة الزائرين المنزليين على تقوية ممارساتهم، وتشجيعهم على مشاركة التحديات التي تواجههم، ودعم الإحساس بالانتماء للمجتمع لديهم. استمر تنفيذ الدوائر التعليمية بصورة غير رسمية في لبنان، ويجري تعميمها في شمال شرق سوريا والأردن.

كذلك يوجد تحدٍ عام آخر وهو استقطاب المشاركين، وذلك رغم اختلاف الدوافع الجوهرية اختلافًا طفيفًا بين السياقات المختلفة؛ ففي لبنان والأردن، أبرز الباطؤ الاقتصادي تقارير مقدمي الرعاية حول الضغوط المالية، التي دفعت بالناس إلى اعتبار التعليم المبكر من الأولويات المتأخرة لأسرهم مقارنة بالتحديات المالية التي تواجههم. تمكن الزائرون المنزليون الذين يبذلون جهودًا متواصلة للتغلب على تحديات الاستقطاب عن طريق الاستعانة بجيرانهم في البرنامج من بناء صِلات اجتماعية أكبر، وتسجيل مشاركين كانوا متشككين في البداية.

**النتائج البازغة**

بلغ برنامج Reach Up حتى ديسمبر 2019 أكثر من 4399 طفلاً و4025 مقدم رعاية في البلدان الثلاثة: خدمت فِرَق الصحة في الأردن 1725 طفلاً و1669 مقدم رعاية، وخدم فريق لبنان 320 مقدم رعاية، وخدم برنامج شمال شرق سوريا 1748 طفلاً و1530 مقدم رعاية.

استخدمنا ثلاثة تقييمات، وهي: أدوات تنمية الطفولة المبكرة المُبلَّغ عنها من جانب مقدم الرعاية (CREDI)، وهي عبارة عن نموذج قصير لقياس تنمية الطفل، واستبيان لمقدم الرعاية يطرح أسئلة حول معارف مقدم الرعاية والممارسات التي طورتها لجنة الإنقاذ الدولية، والقائمة المرجعية للمشرف بغرض تقييم أداء الزائرين المنزليين، وهي القائمة التي طورها فريق Reach Up كجزءٍ من مجموعة الأدوات. يعرض الجدولان 1 و2 بيانات من الأردن ولبنان.

جدول رقم 1: بيانات CREDI من الأردن ولبنان

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
|  | لبنان، مايو-يوليو 2018 | الأردن، ديسمبر 2018-يوليو 2019 |
| إجمالي عدد المجيبين | 312 | 307 |
| نسبة المجيبين الذين تحسنت درجاتهم بين خط الأساس وخط النهاية | 92 | 82 |
| متوسط التحسن في الدرجات بين خط الأساس وخط النهاية | 7 | 13 |

المصدر: لجنة الإنقاذ الدولية (IRC)

جدول رقم 2: الأداء في عناصر محددة من واقع استبيان مقدمي الرعاية في لبنان، مايو-يوليو 2018

|  |  |
| --- | --- |
| الأساليب التي تستخدمها مع طفلك لدعم التعلم والتنمية لديه | كتب الأطفال أو الكتب المصورة التي قُدِّمَت إلى الطفل في المنزل الأسبوع الماضي |
| عدد الأساليب | نسبة المجيبين في خط الأساس | نسبة المجيبين في خط النهاية | عدد الكتب | نسبة المجيبين في خط الأساس | نسبة المجيبين في خط النهاية |
| 0 | 26 | 0 | 0 | 87 | 12 |
| 1 | 11 | 8 | 1 | 7 | 47 |
| 2 | 12 | 30 | 2 | 3 | 24 |
| 3 | 51 | 62 | 3 | 2 | 17 |

المصدر: لجنة الإنقاذ الدولية (IRC)

أظهر الاختبار التجريبي في لبنان وجود تحسن كلي في أداء الطفل ومقدم الرعاية والزائر المنزلي على مستوى المقاييس الثلاثة كلها؛ فقد تحسنت ممارسات مقدم الرعاية بصورة ملحوظة في عدد من العناصر، مع وجود طفرات ملحوظة عند أدنى مستوى من المشاركة. على سبيل المثال، ذكر 26 بالمائة فحسب من الآباء عند مستوى خط الأساس استخدامهم لأساليب (مثل قراءة الكتب والغناء) لدعم تنمية أطفالهم. لكن مع خط النهاية، ذكر 92 بالمائة من الآباء استخدامهم لأسلوبين أو ثلاثة أساليب (من بين ثلاثة أساليب، وهي أعلى إجابة ممكنة)، مع عدم وجود أي أسرة ذكرت عدم استخدام أي أسلوب. كذلك تحسن أداء الزائرين المنزليين بصورة ملحوظة أثناء مدة الاختبار التجريبي وفقًا لقائمة Reach Up المرجعية، إذ أظهر 87.5 بالمائة من الزائرين المنزليين تحسنًا بين خط الأساس وخط النهاية. أخيرًا، أظهر 92 بالمائة من الأطفال تحسنًا في درجات CREDI بين خط الأساس وخط النهاية. يشير الأداء القوي للأطفال والزائرين المنزليين كليهما على مقاييس كل منهما إلى السلامة الكلية للنموذج وتعامله بفاعلية مع احتياجات الأطفال وأسرهم.

في الأردن، وعلى الجانب الآخر، أظهر 82 بالمائة من الأطفال تحسنًا في درجات CREDI بين خط الأساس وخط النهاية، بمتوسط تحسن بلغت نسبته 13 بالمائة. مع أن معدل التحسن الكلي جاء أقل من النموذج التجريبي في لبنان، إلا أن متوسط التحسن كان أعلى، إذ تجاوز متوسط التحسن نسبة 7 بالمائة التي حققها النموذج التجريبي في لبنان.

**قصص النجاح**

وردت تقارير غير موثقة عن نجاح البرنامج مباشرة من مقدمي الرعاية المشاركين في البرنامج والزائرين المنزليين الذين قدموه؛ فقد أبلغ مقدمو الرعاية من كلا الجنسين بصورة متكررة عن بهجتهم ودهشتهم لما حققه أطفالهم من تقدم سريع في البرنامج، معلقين بقولهم إن أطفالهم قد تجاوزوا توقعاتهم أو فهمهم العام لقدرات الأطفال الصغار. في شمال شرق سوريا، حيث تعرض بعض الأسر للعنف حديثًا، لاحظ الزائرون المنزليون أن الكثيرين من مقدمي الرعاية صعقوا عندما رأوا أطفالهم الصغار بدأوا يتحدثون بعد تلقي زيارات منزلية، وقد أدى هذا النجاح إلى طلبٍ مرتفع على البرنامج في تلك المنطقة. أبلغ الزائرون المنزليون في هذه السياقات الثلاثة كلها بعد التدريب الذي تلقوه والوقت الذي أمضوه في زيارة الأسر عن شعورهم بالرضا للعمل الذي قاموا به. بل إن بعض الزائرين المنزليين استمروا بعد ختام النموذج التجريبي في لبنان في العمل كمدربين في مراكز للتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، وذكروا بصورة غير موثقة إن الأطفال الذين تلقوا زيارات منزلية كانوا أكثر استعدادًا للتعلم والتواصل الاجتماعي عندما دخلوا الصف المدرسي.

**حساب التكلفة**

للوصول إلى أكبر عدد من الأطفال باستخدام موازنة محدودة، قمنا بتقييم التباين في تكلفة تقديم Reach Up بين النماذج المتكاملة الثلاثة: التعليم وحماية الطفل والصحة. تراوحت تكلفة النماذج -التي يُوزَّع فيها نفس المحتوى- بين 8 دولارات أمريكية إلى 56 دولارًا أمريكيًا (بسعر الدولار سنة 2019) لكل زيارة منزلية (انظر شكل رقم 3). يرجع الفارق في التكلفة إلى حجم العمل الذي حققه كل فريق وليس إلى أي خاصية جوهرية في البرامج ذاتها التي تم دمج Reach Up فيها. خلصنا من ذلك إلى أن العامل الحاسم في اختيار الوسيلة الكفء لتقديم Reach Up هو حجم العمل في سياق معين، إلا أن "حجم العمل" له أبعاد كثيرة. اتسم فريق الصحة بالكفاءة نظرًا لعدد الزائرين المنزليين الضخم الذين يعملون على تنمية الطفولة المبكرة وتوصيل الرسائل الصحية. كذلك اتسم فريق حماية الطفل بالكفاءة نظرًا لقيامه بضعف عدد الزيارات المنزلية حتى يتسنى لهم قضاء مزيد من الوقت في تنمية الطفولة المبكرة. بعدما اتضحت قدرة فريق الصحة وحماية الطفل على تقديم Reach Up بتكلفة معقولة لكل زيارة منزلية، سوف تركز القرارات المستقبلية بشأن حجم العمل على المفاضلة بين الوصول الجغرافي لفريق الصحة ومقدار الوقت الذي يستطيع فريق حماية الطفل تخصيصه لتنمية الطفولة المبكرة.

شكل رقم 3: تكلفة الزيارة المنزلية لكل نموذج من النماذج المتكاملة الثلاثة

المصدر: IRC

بينما تبدو تكاليف الموارد البشرية للزيارات المنزلية مرتفعة بالنسبة للسياق المحلي (انظر شكل رقم 4)، فإن هذه التكاليف تصاحبها في الأجل البعيد عوائد على الاستثمار ومكاسب محققة في مجالات مختلفة من التنمية البشرية (Gertler et al. 2014; Richter et al. 2017). يُقدَّر العائد على الاستثمار لرعاية الطفولة المبكرة والتعليم في الأردن -على سبيل المثال- من 9 دولارات أمريكية إلى 17 دولارًا أمريكيًا لكل دولار مُستَثمَر (Fink et al. 2017). أظهرت الحكومات الاتحادية في أمريكا اللاتينية مؤخرًا فاعلية التوسع الضخم في تكييفات برنامج Reach Up مثل Cuna Mas في بيرو.

شكل رقم 4: متوسط تكلفة نماذج الزيارات المنزلية المتكاملة الثلاثة

المصدر: IRC

**أفكار وتوصيات**

حاولنا في هذه المذكرة الميدانية إظهار قيمة تنفيذ برنامج Reach Up في التعامل مع التحديات الهائلة التي تواجه رفاه الطفل ومقدم الرعاية التي فرضتها أزمة اللاجئين السوريين، والمشاكل التي تواجه تنفيذه. نجح البرنامج من خلال عملية تكييف متعددة المراحل في النمو والتطور كي يتعامل مع التحديات التي يواجهها الوالدان في مختلف أنحاء هذه المنطقة المتضررة من النزاعات. جاءت النتائج التي أسفرت عنها المرحلة الأولى من البرنامج مشجعة. يجلب برنامج أهلاً سمسم، وهو عبارة عن شراكة بين Sesame Workshop وIRC بدأت في عام 2018، برامج تنمية الطفولة المبكرة إلى الشرق الأوسط ويُمكِّن IRC من إقامة علاقات شراكة محلية بهدف نشر Reach UP في مختلف بلدان المنطقة. سوف تعمل المرحلة الجديدة من البرنامج على التعرف أكثر على الدروس المُستفادَة والبناء عليها.

تشير الأعمال المبكرة لهذا البرنامج إلى أن Reach Up منهج واعد لبرامج تنمية الطفولة المبكرة في السياقات الإنسانية. التوصيات بتكرار هذه النوعية من البرامج هي على النحو الآتي:

* مزيد من الابتكار في شأن التدريب على التقديم مطلوب للزيارات المنزلية المتعلقة بتنمية الطفولة المبكرة في السياقات الإنسانية. كذلك ينبغي إخضاع عمليات التكييف بهدف تقصير مدة التدريب للاختبار، وفي الوقت ذاته لا بد من التوضيح في وقت مبكر أن التدريب على Reach Up عملية أطول وأكثر شمولاً مما قد تتوقعه الأطراف الفاعلة في العمل الإنساني.
	+ ينبغي أن يتم التدريب بصفة منتظمة تحسبًا لمعدل الدوران المتوقع للزائرين المنزليين بسبب طبيعة السكان المتضررين من الصراعات التي تتسم بكثرة التنقل.
	+ لا بد من إخضاع طرائق تدريبية جديدة للاختبار التجريبي، مثل التدريب على مراحل أو التدريب الجزئي من خلال الإنترنت لتقصير الزمن اللازم لبدء البرنامج.
* لا بد من تزويد الزائرين المنزليين بأحدث معلومات الإحالة حتى يتمكنوا من التعامل مع الاحتياجات الأساسية لمقدمي الرعاية، ولا سيما الاحتياجات المالية، عن طريق إحالتهم إلى خدمات أخرى، لا سيما في السياقات التي يكون فيها مقدمو الرعاية أكثر عرضة للخطر.
* ينبغي أن يعزز الإشراف والتوجيه المبكر للزائرين المنزليين من التركيز على السلوكيات المتغيرة لمقدمي الرعاية. بما أن الزيارات المنزلية تشمل التعامل المباشر مع الأطفال، فإن الزائرين المنزليين ربما يجدون بعض الالتباس في استيعاب أن دعم مقدم الرعاية ينبغي أن يحظى بالتركيز الأساسي، لكن يمكن التغلب على هذا التحدي من خلال الإشراف الوثيق.
* الطبيعة الشاملة لهذا النموذج في ظل استمرار الزيارات المنزلية لمدة تصل إلى الساعة تعني ضرورة الحفاظ على عدد قليل من الحالات -من ثلاث إلى أربع زيارات في اليوم- للتقليل من التعب الذي يتعرض له الزائرون المنزليون والحفاظ على جودة عملهم.
* في حالة تبني منهج يعتمد على قطاعات متعددة في التقديم، فإن وجود تعاون وثيق مع القطاعات الأخرى أمر حيوي جدًا لنجاح البرنامج؛ إذ إنه يضمن مشاركة الدروس المستفادة والقدرة على التعامل مع التحديات بصورة تعاونية. يمكن لدوائر التعلم أن تساعد في تيسير هذا الأمر وتوجيه الزائرين المنزليين نحو رؤية مشتركة لتحسين النتائج التي تجنيها الأسر.
* ينبغي إخضاع تكلفة الزيارة المنزلية للتحليل بصفة دورية، وينبغي لمديري البرنامج النظر فيما إذا كان الدمج مع برامج تحظى بتغطية جغرافية أوسع أو مع برامج أكثر استهدافًا أو أصغر نطاقًا حيث تكون التكلفة للأسرة الواحدة أكبر أكثر نفعًا.

تؤدي عمليات التقييم المستقبلية إلى معرفة المزيد حول أثر هذا البرنامج، وتوفر معلومات حول طرائق إعداد البرامج الأكثر فاعلية من حيث التكلفة والأكثر قدرة على التوسيع والاستدامة. إن النتائج المبكرة الواعدة للنموذج التجريبي في لبنان وجمع البيانات من الأردن فضلاً عن التعقيبات التي حصلنا عليها من الأسر في البلدان الثلاثة أرست الدعائم لتقييم مخطط للأثر يقيس تنفيذ القطاع الصحي في الأردن لبرنامج Reach Up، ومن شأن هذا التقييم أن يساهم بنتائج جديدة مهمة تضيف إلى مجموعة الأدلة المحدودة حول تنمية الطفولة المبكرة في سياقات الطوارئ التي تستهدف مقدمي الرعاية والرًضَّع والأطفال الصغار. وسوف تضطلع هذه الأدلة الجديدة بدور مهم جدًا ليس فقط في جهود المناصرة والتمويل، لكن أيضًا في تقريب المجتمع الإنساني من هدفه الجماعي المتمثل في تحسين النتائج التي يحققها الطفل ومقدم الرعاية في حالات الصراع والأزمات.